أهداف سورة الأحقاف

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سورة الأحقاف سورة مكية ، وآياتها ٣٥ آيه ، نزلت بعد الجاثية .

سورة الأيمــان والتوحيــد

تعرض سورة الأحقاف قضية الأيمان بوحدانية الله ، وربوبيته المطلقة لهذا الوجود ومن فيه وما فيه . والأيمان بالوحي والرسالة ، والأيمان بالبعث ومــا وراءه من حساب وجزاء على ما كان في الحياة الدنيا من عمل وكسب ومن إحسان وإساءة .

هذه الأسس الأولى التي يقيم عليها الأسلام بناءه كله ، ومن ثم عالجها القرآن في كل سوره المكية علاجا أساسيا . وظل يتكيء عليهــا كذلك في سوره المدينة كلما هم بتوجيه او تشريع للحياة بعد قيام الجماعة المسلمة والدولة الأسلامية ، ذلك أن طبيعة هذا الدين تجعل قضية الأيمان بوحدانية الله سبحانه ، وبعثــة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ والأيمان بالآخرة وما فيها من جزاء .. هي المحور الذي تدور عليه آدابه ونظمه وشرائعه كلها ، وترتبط به أوثق ارتباط ، فتبقى حية حارة تنبعث من التأثير الدائم بذلك الأيمان .

وتسلك السورة بهذه القضية إلى القلوب كل سبيل ، وتوقع فيها على كل وتر ، وتعرضها في مجالات شتى ، مصحوبة بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية ، كما أنها تجعلها قضية الوجود كله ــ لا قضية البشر وحدهم ــ فتذكر طرفا من قصة الجن مع هذا القرآن ، كما تذكر موقف بعض بني اسرائيل منه ، وتقيــم من الفطرة الصادقة شاهدا ، كما تقيم من بعض بني إسرائيل شاهدا سواء بســواء .

ثم هي تطوف بتلك القلوب في آفاق السموات والارض ، وفي مشاهد القيامة في الآخرة ، كما تطوف بهم في مصرع قوم هود ، وفي مصارع القرى حول مكــة ، وتجعل من السموات والأرض كتبا تنطق بالحق ، كما ينطق هذا القــرآن بالحق عــلى الســواء .

اربعــة مقاطــع

تشتمل سورة الاحقاف على أربعة عناصر متماسكة كأنها عنصر واحد ذو اربعة مقاطــع :

١ ــ نقائص المشركين

يبدأ المقطع الأول بالحرفين « حا . ميم » . وهي بداية تكررت في ست سور سابقة تسمى بالحواميم . وهي : سورة غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والسورة السابعة هي الأحقاف .

ونلحظ أن هذه السور السبع تبدأ بالحرفين حا . ميم ، ثم تعقب بذكر الكتاب ، مما يؤيد أن هذه الأحرف نزلت على سبيل التحدي لأهل مكة أن يأتوا بمثل هذا القرآن .

وتشير سورة الأحقاف في بدايتها إلى القرآن فتقول : **(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)** الأحقاف / ٢ . وعقبها مباشرة الإشارة إلى كتاب الكون وقيامه على الحق وعلى التقدير والتدبير : **(ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى)** الاحقاف / ٣ فيتوافى كتاب القرآن المتلو ، وكتاب الكون المنظور على الحق والتقدير .

وبعد هذا الافتتاح القوي الجامع يأخذ في عرض قضية العقيدة مبتدئا بإنكار ما كان عليه القوم من الشرك الذي لا يقوم على أساس من واقع الكون ، ولا يستند إلى حق من القول ولا مأثور من العلم . ويعرض بعد هذا سوء استقبالهم للحق الذي جاءهم به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين)** الاحقاف / ٧ .

ثم يسوق إنكارهم للحق وتطاولهم على الوحي ، واتهامهم النبي بالكذب والافتراء . ويرد عليهم بأن الأمر أجل من مقولاتهم الهازلة ، وادعاءاتهم العابثة . إذ هو أمر الله العليم الخبير ، يشهد ويقضي ، وفي شهادته وقضائه الكفاية : **(أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم)** الاحقاف / ٨ .

ثم يبين أن محمدا ليس بدعا من الرسل فقد سبقه رسل كثيرون ، فهو مبلغ عن الله وملتزم بوحي السماء . ويسوق حجة أخرى على صدق رسالته ، تتمثل في موقف بعض من اهتدى للحق من بني إسرائيل ، حينما راي في القرآن مصداق ما يعرف من كتاب موسى عليه السلام . ويسطرد في عرض تعلاتهم ومعاذيرهم الواهية على هذا الاصرار ، وهم يقولون عن المؤمنين : **(لو كان خيرا ما سبقونا إليه)** الاحقاف / ١١ ..

ويشير إلى كتاب موسى من قبله ، والى تصديق هذا القرآن له ، والى وظيفته ومهمته : **(ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين)** الأحقاف / ١٢

وفي نهاية المقطع الأول يصور لهم جزاء المحسنين ، ويفسر لهم هذه البشرى التي يحملها إليهم القرآن الكريم بشرطها ، وهو الاعتراف بربوبية الله وحده

والاستقامة على هذا الاعتقاد ومقتضياته : (**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**) الاحقاف / ١٣ ، فقد آمنوا بالله وأعلنوا ذلك واستقاموا على منهج الايمان ، فاستحقوا حياة كريمة في الدنيا ، ونعيما خالدا في الأخرى .

٢ ــ الفطرة السليمة والفطرة السقيمة

يحتوي المقطع الثاني على ست آيات هي الآيات ١٥ ــ ٢٠ ، وفيها حديث عن الفطرة في استقامتها وفي انحرافها ، وفيما تنتهي إليه حين تستقيم وما تنتهي إليه حين تنحرف .

ويبدأ بالوصية بالوالدين ، وكثيرا ما ترد الوصية بالوالدين لاحقة للكلام عن العقيدة ، لبيان أهمية الأسرة والعمل على ترابطها ، وتذكير الانسان بأصل نعمته ورعايته .

وتذكرنا الآيات بجهود الأم وفضلها في الحمل والولادة والرضاع .

« إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية ، تسعى للالتصاق بجدار الرحم ، وهي مزودة بخاصية أكالة ، تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله ، فيتوارد دم الأم إلى موضعها ، حيث تسبح هذه البويضة دائما في بركة من دم الأم الغني بكل ما في جسمها من خلاصات ، وتمتصه لتحيا به وتنمو وهي دائمة الاكلان لجدار الرحم ، دائمة الامتصاص لمادة الحياة ، والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص لتصب هذا كله دما نقيا غنيا لهذه البويضة الشرهة النهمة الاكول .

« وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم فتفتقر إلى الجير ، ذلك أنها تعطي محلول عظامها في الدم ، ليقوم به هيكل هذا الصغير ، وهذا كله قليل من كثير .

« ثم الوضع وهو عملية شاقة ، ممزقة ، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة ، ولا تنسى الأم حلاوة الثمرة ، ثمرة تلبية الفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تفيض وتمتد ، بينما هي تذوي وتموت .

« ثم الرضاع والرعاية ، حيث تعطي الأم عصارة لحمها وعظمها في اللبن ، وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية ، وهي مع هذا وذلك فرحة سعيدة رحيمة ودود . لا تمل أبدا ، ولا تراها كارهة لتعب هذا الوليد ، وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو ، فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد » .

ولقد تكررت وصية القرآن للأبناء ببر الآباء ، لأن الوالدين قدما كل شيء ، كالنبتة التي ينمو بها النبات فاذا هي قشة ، وكالبيضة التي ينمو منها الكتكوت فاذا هي قشرة .

ومن الواجب رد الجميل والعرفان بالفضل لأهله ، وان يحسن الانسان إلى اصله وان يدعو لهما ، وهو نوع من تكافل الأجيال . قال تعالى : (**ووصينا**

الانسان بوالديه إحسانا حملته امه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وان اعمل صالحا ترضاه واصلح لي في ذريتي اني تبت اليك واني من المسلمين) الاحقاف / ١٥ .

وهذا النموذج الذي نشاهده في الآية ، نموذج للفطرة المستقيمة التي ترعى اصلها وتتعهد ذريتها ، وهذا النموذج يقبل الله عمله ويحشره في اصحاب الجنة .

اما النموذج الثاني : فهو نموذج الانحراف والفسوق والضلال ، نموذج ولد عاق يجحد معروف والديه ، وينكر البعث والجزاء ويقول : **(ما هذا الا اساطير الاولين)** الاحقاف / ١٧ .

وهذا النموذج جدير بالخسران . لقد خسر اليقين والايمان في الدنيا ثم خسر النعيم والرضوان في الآخرة .

وينتهي هذا المقطع من السورة ، بعرض هذين النموذجين ، ومصيرهما في النهاية ، ثم يعرض مشهدا من مشاهد القيامة حيث يعرض المتكبرون على النار وفي ذلك المشهد ، نرى الغائب شاهدا ماثلا ، يستحث النفوس على الهدى ، ويستجيش الفطر السليمة القوية ، لارتياد الطريق الواصل المأمون .

٣ ــ قصة عاد

يتناول المقطع الثالث من السورة قصة عاد وهم قوم نبي الله هود ، ويشمل الآيات من ٢٠ ــ ٢٨ .

والقصة هنا تخدم الفكرة وتؤيدها ، فقد انكر اهل مكة رسالة النبي محمد ، واعرضوا عن دعوته . فجاء هذا المقطع يذكرهم بأشباههم ، وينذرهم ان يصيبهم ما اصاب السابقين :
عليه السلام ، دعا قومه إلى التوحيد ، وحذرهم من عذاب الله .

(واذكر اخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف) الاحقاف / ٢١ . واخو عاد هو هود والاحقاف جمع حقف ، وهو الكثيب المرتفع من الرمال ، وقد كانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة في جنوب الجزيرة ــ يقال في حضرموت .

وقد انذر اخو عاد قومه ، ودعاهم إلى عبادة الله وحده ، وحذرهم بطشه وانتقامه . ولم يؤمن عاد برسالة هود . وقابلت دعوته بسوء الظن ، وعدم الفهم ، والتحدي والاستهزاء . واستعجال العذاب الذي ينذرهم به ، فلما راوا العذاب في صورة سحابة ، ظنوه مطرا مفيدا لهم :

(فلما راوه عارضا مستقبل اوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم . تدمر كل شيء بأمر ربها فاصبحوا لايرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين) الاحقاف / ٢٤ و ٢٥ .

وتقول الروايات : إنه اصاب القوم حر شديد . واحتبس عنهم المطر ، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف ، ثم ساق الله إليهم سحابة ففرحوا بها فرحا

شديدا ، وخرجوا يستقبلونها في الاودية ، وهم يحسبون فيها الماء: **(قالوا هذا عارض ممطرنا)** . وجاءهم الرد بلسان الواقع **(بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم . تدمر كل شيء بأمر ربها)** .. وهي الريح الصرصر العاتية التي ذكرت في سورة اخرى كما جاء في صفتها : **(ما تذر من شيء اتت عليه إلا جعلته كالرميم)** الذاريات / ٤٢ .

لقد اندفعت الريح تحقق امر الله ، وتدمر كل شيء بأمر الله ، فهلك القوم بجميع ما يملكون ، من انعام ومتاع واشياء ، وبقيت مساكنهم خاوية خالية موحشة ، لا ديار فيها ولا نافخ نار .

ويلتفت السياق إلى أهل مكة يلمس قلوبهم ، ويحرك وجدانهم ، ويذكرهم بأن الهالكين كانوا اكثر منهم تمكنا في الارض ، واكثر مالا ومتاعا وقوة وعلما . فلم تغن عنهم قدرتهم ولا قوتهم ، ولم يغن عنهم ثراؤهم . ولم ينتفعوا بسمعهم وابصارهم وافئدتهم ، بل اغلقوا قلوبهم عن سماع الحق ، ولم تغن عنهم آلهتهم التي اتخذوها تقربا الى الله .

وكذلك يقف المشركون في مكة امام مصارع اسلافهم من امثالهم ، فيقفهم امام مصيرهم هم انفسهم ، ثم امام الخط الثابت المطرد المتصل . خط الرسالة القائمة على اصلها الواحد الذي لا يتغير ، وخط السنة الالهية التي لا تتحول ولا تتبدل وتبدو شجرة العقيدة عميقة الجذور ، ممتدة الفروع ، ضاربة في اعماق الزمان ، واحدة على اختلاف القرون واختلاف المكان .

لقد اهلك الله القرى التي كذبت رسلها في الجزيرة ، كعاد بالاحقاف في جنوب الجزيرة ، وثمود بالحجر في شمالها ، وسبأ وكانوا باليمن ، ومدين وكانت في طريقهم إلى الشام ، وكذلك قرى قوم لوط ، وكانوا يمرون بها في رحلة الصيف الى الشمال .

وقد نوع الله في آياته لعل المكذبين يرجعون إلى ربهم ، ويثوبون إلى رشدهم . قال تعالى : **(ولقد اهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون)** الاحقاف / ٢٧ .

٤ ــ ايمان الجن

يتناول المقطع الرابع الحديث عن ايمان الجن ، ويشمل الايات الاخيرة من سورة الاحقاف .

وقد تحدث القرآن عن الجن ، فذكر ان اصلهم من نار ، وان منهم الصالحون ومنهم الظالمون ، وان لهم تجمعات معينة ، تشبه تجمعات البشر ، في قبائل واجناس ، وان لهم قدرة على الحياة على هذا الكوكب الارضي ، ولهم قدرة على الحياة خارج هذا الكوكب . وللجن قدرة على التاثير في ادراك البشر ، والايماز بالشر . قال تعالى : **(قل اعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة والناس)** سورة الناس . ومن خصائص الجن : ان يرى الناس ولا يراه الناس ، لقوله تعالى عن

ابليس وهو من الجن : **(انه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم)** الاعراف / ٢٧ .

وقد تحدثت الايات الاخيرة من السورة ، عن إيمان الجن الذين استمعوا لهذا القرآن ، فتنادوا بالانصات ، واطمأنت قلوبهم الى الايمان ، وانصرفوا إلى قومهم منذرين ، يدعونهم إلى الله ،ويبشرونهم بالغفران والنجاة ، ويحذرونهم الاغراض والضـــلال .

وهذا الامر في ظاهره الخبر عن إيمان الجن ، ومع ذلك فهو يصور اثر هـــذا القرآن فى القلوب ، فعندما سمعت الجن تلاوة القرآن قالوا انصتوا ، وعندما تأثرت قلوبهم انطلقوا الى قومهم ، يتحدثون عن القرآن ، والايمان ، ويعرضون دعوة الاسلام على قومهم ، وبفضل القرآن صاروا دعاة هداة ، ملك القرآن عليهم نفوسهم ، فانطلقوا يحملون الهداية والرحمة لقومهم ، ثم يتحدثون عن الصلة الوثيقة بين القرآن والتوراة ، وبين محمد وموسى ، فالجميع من عند الله لهداية خلق الله :

(قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديـــه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم) الاحقاف / ٣٠ .

وهذا القول من الجن يفيد ما بين الرسل جميعا من أصرة الأخوة ، فربهم واحد ، ودعوتهم واحدة ، وفكرتهم اساسها هداية الناس ، ومحاربة الرذائل ، والتعاون على الخير والمعروف . والعداء بين الاديان إنما جاء من سوء الفهم او من تحريف الانسان للوحي .

كذلك ورد على لسان الجن إشارة إلى كتاب الكون المفتوح ، ودلالته على قدرة الله الظاهرة في خلق السموات والارض ، الشاهدة لقدرته على الاحياء والبعث ، وهي القضية التي يجادل فيها البشر وبها يجحدون .

وبمناسبة البعث يعرض السياق مشهدا من مشاهد القيامة ، يبدو فيه الكفار وهم يعترفون بالايمان ، بعد ان كانوا ينكرونه في الدنيا ، ثم يقـــال لهم : **(.. فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون)** الاحقاف / ٣٤ .

وفي ختام السورة توجيه لرسول الله بالصبر والمصابرة ، فانها طريق الرسل وما ينبغي للدعاة الا الصبر والاحتمال .

مقصود السورة اجمـــالا

ذكر الفيروزبادي ان معظم مقصود سورة الاحقاف هو :

« إلزام الحجة على عبادة الاصنام ، والاخبار عن تناقض كلام المتكبرين ، وبيان نبوة سيد المرسلين ، وتأكيد ذلك بحديث موسى ، والوصية بتعظيـــم الوالدين ، وتهديد المتنعمين والمترفين ، والاشادة باهلاك عاد العادين ، والاشارة إلى الدعوة واسلام الجنين ، وإتيان يوم القيامة فجأة » واستقلال لبث اللابثين في قوله : **(فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كانهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون)** الاحقاف / ٣٥ .